

## "الحدس مكتوبة"

كتابة بول ب. بريسيادو، ترجمة ناريمان يوسف

في كل عام مع بداية شهر سبتمبر تمتد يد كونيّة حانية لتخفّف من وطأة الشمس وتستبدل بعضاً من هواء الصيف الكاتم على أنفاسنا بموجات من النسيم البارد تحملها من البحيرات الشمالية إلى المدينة. سبتمبر شهر لطيف، فهو أيضاً أوان خروج الكتب الجديدة إلى النور، بجلودها الطرية وأغلفتها الزاهية، مثل جراء وُلدت في أول الصيف وأصبحت أخيراً مستعدّة للهو واللعب في الساحات العامة. تمتلئ المكتبات بهذه الأجساد للغمورة. ينبج بعضها في الدخول إلى البيوت، ليصبح جزءاً من مكتبة إحداهن أو يستلقي على الطاولة بجانب سرير أحدهم أو حتى يزور معهم أسيّرة الغرباء. الكتب، مثل الفيروسات، كيانات وسيطة بين كائن حيّ وآخر.

المكتبة سيرة مادّيّة كتبت بكلمات الآخرين، مكوّنة من تراكم وتتابع الكتب المختلفة التي يقرأها المرء على مدار حياته. بالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من التناقض البادي أو الإزعاج الذي قد تسببه الفكرة للمشتغلات/ين بالكتابة – وإن كانت ستروق لبائعات/ي الكتب – فللمكتبة كسيرة ذاتيّة تتضمن أيضاً الكتب المملوكة دون أن تُقرأ: تلك المستقرّة على الرفوف والمنتظرة على الطاولات دون أن تُفتح أو يُنظر إليها. الكتب غير المقروءة في السيرة الذاتيّة تشير إلى رغبات محبّطة وأمنيّات عابرة، إلى صداقات لم تستمر ونداءات لم تُلبّي، إلى اكتنايات مختبئة خلف ادّعاءات الإرهاق أو ضيق الوقت. وهي أحياناً أقنعة يرتديها قارئ/ة كاذب/ة لإرسال إشارات أدبيّة تهدف إلى إثارة تعاطف أو تواطؤ غيره/ا/م من القراء. وفي أحيان أخرى، كما على صفحات الإنستغرام مثلاً، لا يهم سوى الغلاف أو اسم المؤلف/ة أو حق عنوان الكتاب. الكتب غير المقروءة عبارة عن كبسولات تحتوي على وعود مستقبلية لم تتحقّق، حصص وقتيّة مركّزة ترنو إلى اتجاهات ممكنة لم تسلكها الحياة ... أو ربما لم تسلكها بعد.

/ / /

### لكل علاقة كتابها المقدس

كل علاقة حبّ تترك وراءها بيليوغرافيا، مثل أثر أو إرث تُحصي فيه الكتب التي يجلبها كل حبيب للآخر. يمكن أيضاً أن نقول إنّ لكل علاقة إنجيلها، أو كتابها المقدس، ذلك الكتاب الذي يسمح بسرّ قصة الحبّ أو ابتلاءه.

وتُقاس شدّة الحبّ ودرجة تحقّقه من خلال تأثير العلاقة على المكتبة الشخصية. أحياناً ينتج عن علاقة ليلة واحدة أو قصة سريعة بيليوغرافيا أكثر إسهاباً أو بلاغةً من تلك التي تتركها علاقة استمرّت لسنوات. عائشة، على سبيل المثال، عبّرت عن رغبتها في بإهدائي رواية أمين معلوف «القرن الأول بعد بياتريس» في الوقت الذي سبق تغيير اسمي مباشرة، كما لو أنّ القرن الذي يقصده معلوف أو شك على البدء في تلك اللحظة بالذات. كانت قصة حبّنا قصيرة ولكن بيليوغرافيتها غنيّة: تركت لي عائشة كل كتب محمود درويش التي كانت تمتلكها، بعضها بالإنجليزية وبعضها بالفرنسية، مجموعة تمثّل في حد ذاتها مكتبة فلسطينية، استحالتها من استحالة حبّنا.

أندكّر أيضاً مكتبة ديدره، وهي عشيقه كانت تربطني بها علاقة «بي دي إس إم» تعاقدية بحتة في نيويورك. لم تكن نلتقي خارج نطاق جلسات متقّق عليها، لكن حيث أنّها كانت تحضّر رسالة دكتوراه عن هيجل، انتهى بي الأمر إلى قراءة كتاب «فنونولوجيا الروح» فقرة بعد فقرة على مدار لقاءاتنا. وما زلت أحتفظ في مكتبي بنسختها الألمانية التي تحتوي على تسطير وتعليقات بخطها، رغم أنّي، في غيابها، لن أتمكّن من قراءتها مرة أخرى.

/ / /

### بيير غيوتا في الثلاجة

إحدى أشبع العلاقات في حياتي، تلك التي أقمتها مع جان لبضعة أشهر، أضافت إلى مكتبي أعمال بيير غيوتا التي لا يمكنني الآن تقدير قيمتها بثمن. أفكر في الأجزاء الأكثر عنفاً وتهديداً من كتاب Edén Edén Edén – التي كان جان يعيدها – وأتساءل إن لم تكن تلك الأجزاء تمثّل البروتوكولات الانفعالية التي انعكست فيما بعد على ما أتخذه هوسه وحبّه للتملّك والغضب الذي صبّه عليّ من أشكال. لا تزال كتب غيوتا الأخرى على رفوفي وغالباً ما ترافقي في رحلتي، ولكن نسخة كتاب عدن التي أعطاني إياها جان بقيت لسنوات في «فريزر» ثلاجتي في باريس، وذلك بناءً على ما نصحتني به ساحرة لجأت لها لتشفييني من اعتداءاته. وعندما انتقلت من شقة إلى أخرى، تركت الكتاب



في الثلّاجة. ربما اعتقد من استأجروا الشقة بعدي أنّي كنت أحفظ الكتب مبرّدة لاكلها. لن أعرف أبدًا ما إذا كانوا قد أخرجوا الكتاب من الثلّاجة منذ ذلك الحين، بغرض القراءة أو مجرّد التنظيف، أم أنّ عدن تلك لا زالت غارقة في البرد.

بعض العلاقات تترك في أعقابها كتابًا مجمدًا لا تتمكّن من قراءته بعدها أبدًا. وعلاقات أخرى قد تهديك مكتبة جديدة بأكملها. مثل علاقتي بفيرجيني، الحبيبة التي عشت معها لأطول فترة - شكّلنا معًا مكتبة تضم أكثر من خمسة آلاف كتاب، جمعت كتب كل منا وأضافت إليها الجديد كلّ يوم. وعلى الرغم من مرور أكثر من أربع سنوات على انفصالنا كزوجين - حسب التقاليد البرجوازية والأبوية التي لا تزال تحكم مفهومنا الاجتماعي عن العلاقات الرومانسية - لم نتمكن أبدًا من فصل كتبنا. جئت أنا وفيرجيني من عالين مختلفين، أو فنقل، قبل أن يجمعنا الحبّ كانت مكتبتنا غير متجانستين بالرة. مكتبتها كانت تتكوّن من ألف كتاب عن الثقافة الموسيقية والبنك روك، العديد منها بالإنجليزية، مع تشكيلة معتبرة من الأدب الأمريكي ومختارات من روايات الجريمة الفرنسية. أما مكتبتني فشكّلتها المؤسسات الأكاديمية لثلاث دول مختلفة، من المدرسة اليسوعية وجامعة البحوث الاجتماعية الجديدة إلى جامعة برينستون ثم كلية الدراسات العليا الفرنسية للعلوم الاجتماعية. كانت مكتبة ممّلة إلى حد كبير، جلّ ما تم عنه هو الدأب والاجتهاد الدراسي، احتوت كتبًا بلغاتٍ ثلاث وجمعت بين الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية وتاريخ العمارة والتكنولوجيا وكذلك الفلسفة الفرنسية، ولم يززع هيمنة أسفار الفكر الغربي عليها سوى وجود نحو خمسمئة مؤلّف نسوي أو كويري أو معادي للاستعمار.

أدى حتنا في بادئ الأمر إلى تنقل بعض الكتب بين مكتبتينا. ربما كانت البداية عندما هاجر كتاب مونيك ويتيغ Le corps lesbien من مكتبتني إلى مقامٍ مثاليّ في مكتبتها بين ألبرتين سارازين وغولياردا سابيينزا. ثم تسلّ من عندها إلروي وكالافرت وشحذا صفحاتهما حتى تمكّنا من شقّ فجوة في مكتبتني بين هوبر ولايينيتس. تلا ذلك لقاء رافع بين ليديا لنش من عندها وفاليري سولاناس من عندي. كما سافر بالدوين من مكتبتها ليجد مكانًا بجوار أنجيلا ديفيس وبيل هوكس في مكتبتني. وكانّ الحدود السياسية التي شيدتها كل مكتبة قد تهاوت أمام القوة الساحرة لكتب الآخر.

/ / /

## تلقيح متبادل

ثم انتقلنا للعيش معًا. اتحدت المكتبتان وحن وقت إعادة ترتيب المجموعات المسلسلة وتصدّع أعمدة الكلاسيكيات واضطراب مجملات الأعمال وتحوير الأبجديات. بدا دريدا أفضل بين فيليب غارنييه ولوران شالومو. ثم جاءت لحظة التحوّل الكبير: بدأت مكتبتنا المشتركة في النمو من خلال تلقيح متبادل جلب لها مؤلّفات جديدة. ظهرت رفوف كاملة من باسوليني وجون ديديون وجون غوردن وكلوديا رانكين وسوزان سونتاج وإلفريده يلينك. وعندما تعلّمت فيرجيني الإسبانية، نبتت لمكتبتنا عشرات من الأذرع لتحمل روبرتو بولانيو وأوسفالدو لابورغيني ويبدو لمبيل ودبامبلا لتبت وخوان فيلورو. أصبحت المكتبة وحسًا نقضي في حضرته ساعات من اللعب مثل الأطفال، نضيف أشيل ميمبي هنا وإيما غولدمان هناك، وتناقل في التركيب للتغيّر لهذا الجسد الخيالي. كانت المكتبة المشتركة كائنًا حيًّا، ينمو معنا ويكبّر.

نتج عن هذا التزاوج شبه الجنسي لمكتبتينا استحالة فصل الكتب عندما قترنا الانفصال وانتقلنا أنا إلى أثينا. وكان هذا دليل تجاوز فؤة المكتبة لقوتنا كزوجين. كان حتنا - في صميمه - مكتبة. ليس لتوافقه مع سردية كتاب ما، ولا لأنّ خياليته غلبت على واقعيته، وإنما لأنّه وخذ كتبنا بشكل أكثر ديمومة وحمية من توحيد لأجسادنا. ولا تزال مكتبتنا حيّة ومتغيّرة حتى هذا اليوم.

في حالات أخرى، تكون أزمة الحبّ هي نفسها أزمة المكتبة. في علاقتي بأليسون مثلاً، ظهرت مقاومتها للحبّ منذ اللحظة الأولى حين تردّدت في السماح لي باستخدام مكتبتها بحريّة. كانت مكتبة أليسون مصابة بنوع من الانفصام. هي من جانب مكتبة كلاسيكية وجادة، نشأت عن خيارات مدرّسة بعناية. ما جمعت منها خلال سنوات دراستها وما ورثته عن والدّها، وكلاهما اشتغلا بالكتابة، يتألّف بأكمله من كتب نُشرت قبل ١٩٨٥. بينما الجانب الآخر من المكتبة عبارة عن مجموعة من العناوين أبعد ما تكون عن التجانس، في الشعر والمسرح والعمارة والقصص والمقالات



القصيرة، باللغتين الإسبانية والكatalونية، جميعها نُشر بعد ١٩٨٥، وأهداها لها في الأغلب للمؤلفات/ون أنفسهم/م في مقابل عروض خاصة للكتب لم يضير أليسون تقديمها لهن/م، جلسات ودية تُعقد في محال بيع الكتب مع النبيذ البريوراتي والتاباس.

لم يكن يسعدني شيء عند وصولي إلى منزل أليسون، بعد رحلة طويلة من أثينا أو نيويورك، أكثر من الاستلقاء على سريرها وملء وقت الانتظار بقراءات عشوائية من تلك الكتب المنشورة قبل ١٩٨٥. هكذا أعدت قراءة كتاب «الأخلاق» لسبينوزا وكتاب جيل دولوز عن فوكو، وكتاب زرادشت لنيتشه، والترجمة الإسبانية الأولى لوي ديك. في جو برشلونة البليد ثقافياً والعدائي سياسياً، كانت هذه الكتب بمثابة مجموعة من الأصدقاء المخلصين المستعدين دوماً للتزّه معي. رافقوني إلى الشاطئ، ضاعوا في حقائب سفري، وكثيراً ما انتهى بهم الأمر بصفحات تملؤها حبيبات الرمال على رقبتي في الحمام أو المطبخ. كانت أليسون تقول إنني أقلب حال مكتبتيها. وكان الإنتاج المنظم لقلب الحال هذا هو النشاط الأساسي الذي كرّست نفسي له، إلى جانب ممارسة الحبّ معها، في السفرات التي قمت بها لزيارتها. حين أتذكر أيام الأحاد تلك الواقعة بين رحلتين، أفترق مناصفةً إعادة أليسون لترتيب جسدي وعيبي بترتيب مكتبتيها. ويُعتبر هذا ملخصاً لما تعنيه لي أوقات الراحة أو الفراغ: الجنس والقراءة. الحبّ والكتابة. ليس التنس ولا الجولف ولا السياحة.

/ / /

### هل يمكن الحبّ دون احتضان مكتبة الحبيب؟

وضح الخلاف بين مكتبتينا عندما أهدتني كتاب لميشال أونفراني في الكريسماس. أثار ذلك ما يمكن تسميته، إن أردنا استخدام لغة تقنيّة، تضارب بيليوغرافي. ربما لأنّها لم تتمّ أبداً قراءة الكتب التي كتبتها، فلم تفهم كم كان ميشال أونفراني بعيداً عن مكتبتي، بعيداً كبعد كارل أوفه كناوسغارد عن شيمامنده نغوزي أو فيليب روث عن ماغي نلسون. لم أقل شيئاً. لم نتحدث في الموضوع. حاولت هي إصلاح الموقف. في أحد الأيام، أعطتني نسخة مصوّرة غاية في الجمال من Pharmako Gnosis لدابيل بنديل. لكن بشكل عام، يمكن وصف وضعنا بالآتي: أحببت أنا مكتبة أليسون، ولم تشدّها مكتبتي كثيراً. وسألت نفسي: هل يمكن أن تحب كاتباً، أعني شخص الكاتب/ة، جسده//م، وبعبارة أخرى القارئ/ة داخله//م، دون قراءة كتاباته//م أو كتبه//م؟ هل يمكن لشخص أن يحبّ آخر دون معرفة واحتضان مكتبته//م؟

بينما أكتب هذه السطور، أدركت أنّه لا يزال على مكتبي آخر كتاب قدّمته لي في ٢٣ أبريل، Esta Bruma Insensata بقلم إنريكي فيلا ماتاس. ولعل يوم ٢٣ أبريل هو أجمل أيام السنة في برشلونة، تحتفل فيه المدينة بالهجران الوطني للكتاب، وتفتح المكتبات الكبيرة والصغيرة أبوابها، واضعةً كتبها الأكثر مبيعاً، تلك التي تعتمد عليها في أرباحها، على طاولات في الشارع ومعها أيضاً بعض الكتب صعبة البيع ومجموعات غير معروفة من دور نشر على مشارف الإفلاس. في الصفحة الأولى من الكتاب، والذي يشير عنوانه إلى ضباب هرائي أو غير ذي معنى، يوجد إهداء بخط يد أليسون: «في يوم الكتاب هذا حيث يوجد كتابك أيضاً وحيث يسعدنا - برشلونة وأنا - أن نرافقك. أحبتك. أليسون.» تصعقي كلماتها، ليس فقط عبارة «أحبتك» التي أستشعرها كطعنة، وإنما أيضاً اتصال الحرف السادس والعشرين من الأبجدية القشتالية بنفسه في حالتيه، حرف «y» (وهو حرف العطف)، كما لو أنّ أليسون اعتبرت نفسها مدينة، أو العكس، كما لو أنّها باعتبارها برشلونة شخصاً قد أقامت معها تحالفاً سريعاً. هل معني ذلك أنّ تخليها عن مرافقي أو عن حيي يعني أن تفعل للمدينة الشيء نفسه؟ أعرف الآن أنّ هذا الإهداء كان يحمل شيئاً كالنبوءة. كُنا معاً عندما بدأت قراءة الكتاب. وحين انتهيت، كُنا قد افترقنا.

/ / /

### عن الاستقلال البيليوغرافي ووحودية المكتبات

ربما كان هذا الضباب الهرائي هو الكتاب - أو الصندوق - الأسود لحبّنا. بطل الرواية سايمون شنايدر شقيق لكاتب كبير ويجمع من أجله مقتبسات غيره من الكتاب، وهو يستخدم تعبير الضباب الهرائي لوصف الارتباك السياسي

التي أتت به في السنوات الأخيرة حركات الاستقلال الكتالونية والوحودية الإسبانية، ليحلّق مثل سحابة منخفضة فوق مدينة برشلونة. يعتبر سايمون أنّ لأشياء معيّنة ما سمّاه المؤرّخ الفني سوريو «الحضور الثانوي» أي ذلك الحضور الذي يشبه الضباب أو الرذاذ أو النسيم.

في حالة حَبْنًا، قد يشير الضباب إلى الارتباك الناتج عن استقلالية أليسون البليوغرافية والليول الوحوديّة لكتبتي. خيّم هذا الضباب على علاقتنا حتّى أصبحت مكتبة حَبْنًا، إذا جاز التعبير، غارقة فيه.

في أحد الأيام، نحو نهاية العلاقة، سألتها في وسط الحديث عن علبة خميرة كانت على طاولتها تحمل عبارة «للمعجنات الراقية» (para la bollería fina).

ردّت بسؤال: وما الذي يهّمك في هذه العلبة؟

قلت: أعتقد أنّ الشخص الذي أهداك إياها قصد أن يمازحك حول هيئتك السحاقية وإصرارك الدائم على أنك غيريّة. واستطردت ضاحكًا: «للمعجنات الراقية» لأنّ في الإسبانية يُطلق على المرأة الليزبيان «صانعة معجنات».

بازدراءٍ بارد قالت: اسمع يا بول، ليس كلّ العالم عبارة عن مانيفستو للجنس المقاوم.

وكانت بذلك تشير إلى عنوان كتابي الأول الذي لم تقرأه بالكامل ولا أعتقد أنها قد تحدّثت إليّ عنه قبل تلك اللحظة.

تحوّل ما تخيلته مزحة إلى تسوية حسابات بين اثنتي (ت)ين من أمناء المكتبات. وبدا لي أنّها أخذت الكتاب نفسه وألقت به في وجهي، كما لو أنّها بكلماتها تلك حظمت مكتبي الهشّة. عرفتُ حينها ما كان يمكن أن أعرفه عند اللزّة الأولى التي لامتني فيها على العبث بكتبها. عرفتُ أنّه لا يمكن أن تكون لنا مكتبة مشتركة. بعد ذلك ببضعة أيام، قممتُ بتحضير حوالي ستة من الطرود تحوي كتيبي التي تراكمت في منزلها خلال سفرتي، وغادرتُ دون أن تطلب هي ممّي أن أبقى. لم نتحدّث من وقتها، ولم نر بعضنا البعض.

فترات الاكتئاب أو السخط العميق هي تلك التي تصبح فيها المكتبة مجرد قطعة أثاث والكتب مجرد أشياء. نراها عندئذ كأشكال هندسية ومجلدات ضخمة، تزيّن جدارًا يفصلنا عن العالم الخارجي، تزعجنا بوجودها أو تزدهم بها بيوتنا. نقيسها بالسنتيمترات ونزنها بالكيلوغرامات. نفقد القدرة على النظر إليها كأبواب ورقية تُفتح على عالم موازية. لكن الحبت سيعود يومًا، وسندرك أنّه قد عاد عندما تتحوّل المكتبة إلى كائن فيروسي حي من جديد.

باريس، ١٧ سبتمبر ٢٠١٩



جاءت النسخة الانجليزية الأولى نتيجة تكليف للكتابة حول موضوع الحب من قبل مكتبة باسا بورتا ومسرح بورشوبورج في بروكسيل.

بول ب. بريسيادو فيلسوف وكاتب، مقيم في باريس. من مؤلفاته: Testo Junkie, Pornotopia, Contra-sexual Manifesto، وآخر أعماله رواية بعنوان An Apartment on Uranus